الدرس الأول:

نافذة على مصادر الأدب

إن ما وصلنا من التراث الأدبي الجاهلي الصحيح الموثوق به من شعر وخطب وحكم وأمثال قليل. ولعل ذلك أن يُعزى إلى غياب التدوين لذلك العهد . ولو كان التدوين موجودا وقتها لوصلنا كم هائل من الأدب الذي ضاع معظمه .

إن ما وصلنا لا يمكن الجزم بأنه صحيح لا لبس فيه أو أنه لم يتعرض للإضافات والتغيير على مر الزمن.

فدواوين الشعراء وكتابات المترسلين لم تظهر في أيدي الناس إلا بعد مرور قرن ونصف من تدوين القرآن الكريم على وجه التقريب. وقد كانت عبارة عن دروس سمعها الرواة من شيوخ الأدب أو نسبوها إليهم.

غير أنه لا يمكن الانجراف وراء الرأي القائل بأن الأدب الجاهلي غير صحيح جملة. فقسم منه لو أسقطناه على البيئة الجاهلية وعلى المجتمع الجاهلي وعلى أسلوبهم، لتطابق مع العقلية الجاهلية وطريقة التفكير لديهم.

ويعترض فريق آخر قائلا إن التدوين وجد منذ العصر الجاهلي، لكنه لم يثبت أمام النقل الشفوي للشعر. ويرجع هؤلاء إلى قصة صحيفة لقمان، التي قدمها سويد بن الصامت إلى النبي عليه السلام، واحتجوا بالمعلقات التي كتبت بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة.

على الرغم من إنكار أبي جعفر النحاس لتسمية المعلقات وشكه في أن تكون علقت على جدن الكعبة وآثر أن يسميها بالقصائد الطوال .

وهم يذكرون أسماء من عرف الكتابة لذلك العهد، أمثال النابغة الذبياني ولقيط بن يعمر الإيادي الذي كان كاتبا في بلاط الفرس، وعبد الله بن رواحة.

وكذلك أسماء من تعلم الخط والكتابة في مدارس الحيرة كالمرقش الأكبر (عمْرو بنِ سَعْد) وحرملةَ بنِ سَعد وهما أخَوان.

وقد نشأ خلاف في الرأي حول موثوقية ما انتقل إلينا من التراث الجاهلي، ولكن من الثابت أن الرواة هم من نقل الشعر الجاهلي عبر العصور وليس المدونات. ثم انتقلت النصوص في صدور الناس عبر العصور حتى بدأت مرحلة التدوين الحقيقي في العصر العباسي الأول.

فأخذ المدونون يحققون النصوص ويفسرون غريب متونها، واهتموا بالأسانيد نتيجة تأثرهم برواية الحديث الشريف وتدوينه، ولم تكن الأسانيد بحد ذاتها مريحة للقارئ النهم. فقد كانت تُربِكُ النص وتزيد حجم الكتاب، فلو حذفنا أسانيد كتاب الأغاني تمثيلاً لخفَّ حجم الكتاب إلى النصف.

وما يُهِمّنا هنا هو أنه بعد عصر التدوين وانتشار الكتب وتداولها، ظهر ما يمكن أن نسميه مصادر الشعر الجاهلي التي لا يمكن أن يستغني عنها من يشتغل في هذا الاتجاه.

وقد أمكن بعد ظهور هذا الكم الهائل من المراجع والبحوث والدواوين تصنيف مصادر الأدب الجاهلي إلى خمس زمر هي :

1- دواوين الشعراء : دونت نتف منها في الجاهلية ودون جزء آخر في صدر الإسلام، ولم يكن ممكنا تداولها بين الناس والاطمئنان إليها، إلا بعد موافقة شفوية من الطبقة الأولى من الرواة الذين توزعوا على مدرستي الكوفة والبصرة.

ورغم الخلاف بين المدرستين إلا أن ذلك قد قيَّضَ ظهور دواوين امرئ القيس، وزهير وعلقمة الفحل وعنترة وغيرهم. ثم جاء بعدهم جيل من الرواة كونوا مدرسة بغداد، فأخذوا من كلا المدرستين ووثقوا النص أكثر من السابق.

2- دواوين القبائل : وهي دواوين تضم أشعارا لقبائل بعينها، بحيث يختص كل ديوان بقبيلة وشعرائها، وعندما صنف الرواة مجموعاتهم تلك التي قارب عددها

ستين مجموعة وَفق ما نقله أبو الحسن الآمدي عادوا إلى كتب القبائل. وكان لكل قبيلة نوع من السجل أطلق عليه تجاوزا اسم كتاب فيه جمع لمفاخر القبيلة ووقائعها وأبطالها. وقد أفادهم تجميع شعر القبيلة في التعرف على لهجتها ومواصفات لغتها.

وأشهر من تحمل هذا العبء أبو سعيد السكري، وأبو عمرو الشيباني. وقد بدأ هذا التجميع بعد الهجرة بثلاثة قرون. ورغم أن ابن النديم ذكر اسم أكثر من عشرين مجموعة صنفها أبو سعيد السكري إلا أن ما وصلنا هو فقط ديوان قبيلة هذيل، ولنا أن نأسف على هذا الكم الكبير من التراث والمدونات التي ضاعت.

3- المجموعات الشعرية : بدأت المجموعات الشعرية بالمعلقات السبع ثم العشر- وظهرت الشروح لها، وجاء جيل جديد من المجموعات الشعرية التي كانت أضاميم من القصائد والأشعار والمقطعات التي اختارها ذوق جامع المجموعة بلا رابط يؤلف بينها. وأشهر تلك المجموعات المفضليات، والأصمعيات، ودواوين الحماسة (حماسات أبي تمام والبحتري ومحمد بن عبد الرحمان العبيدي ...) وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي .

3- كتب النحو واللغة : ومنها الكتاب لسيبويه وما تضمنه من شواهد في الشعر الجاهلي والخطب والنصوص النثرية لإثبات الآراء النحوية والفصل في المسائل اللغوية المعقدة. وقد تعب مؤلفو تلك الكتب في جمع هذه الأشعار وتبويب كل شاهد وإيراده في مكانه، ولكن أول كتاب وصلنا يحمل مفهوم النقد الممنهج هو كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي. ورغم أن النقد الأدبي في تلك المرحلة كان مايزال يحبو إلا أن كثيرا من الآراء الصائبة التي قدمها المؤلف تشير إلى أنه أسس لنوع جديد من التأليف عمد بعده كثيرون إلى تقليده.

4- كتب التاريخ والأدب : ومنها كتب السير والمغازي وأيام العرب والتاريخ وكتب الأدب والأمثال، وقد استشهد مؤلفوها بكثير من الشعر الجاهلي لإثبات الوقائع وإضفاء الجو القصصي المثير على الرواية. فضلا عن توثيقها بكثير بما لا يحمل مجالا للشك في صحتها، وتحفل هذه الكتب بنصوص نادرة من خطب وقصص وأمثال.

الدرس الثاني:

المصدر: في التأليف هو الكتابُ العُمدة الذي ينسلُ الباحث منه المعلومات التي يستخدمها شاهداً وبرهاناً في بحثه . وهو الكتاب الذي ألفه مؤلفه، أو الذي شرحه له تلميذه أو شيخ من أهل الأدب؛ فكتابُ الحماسة لأبي تمام مصدر، وشرح الحماسة للمرزوقي مصدر أيضاً. أو أي كتاب اتّصف بالقدم مع دقة في تأليفه مثل ديوان البحتري، الموازنة ،دمية القصر يتيمة الدهر . . . ومن هنا كان المصدر هو الأساس في البحث العلمي وعليه الاعتماد، في حين أن المرجع يُستأنس به ويؤخَذُ برأي مؤلفه للمناقشة والمدارسة .

فكتابُ لزوميات المعري مصدر، وكتاب «مع أبي العلاء في سجنه» مرجع، يؤخذ النص من الأول وليس من الثاني ، ولكن يمكن الاستفادة من رأي طه حسين في كتابه إذا كان ذلك ضرورة .ولكن لا يجوز أن تأخذ نصاً من كتاب «مع أبي العلاء في سجنه» لأنه مرجع .

على أن بعض الكتب التراثية هي مصادر من ناحية ومراجع من ناحية؛ فكتاب «الأغاني» لأبي الفرج مصدر موثوق به لدراسة العصر ـ العباسي ككل، ولكنه مرجع لشعراء العصر ـ الجاهلي والأموي لأنه لم يعاصِرْهُما . فلا يجوز أن نأخذ منه نصاً للنابغة أو المتلمس أو عمر بن أبي ربيعة .

أما الكتب الحديثة فهي مصادر إذا كانت لمؤلفيها، ومراجع إذا كانت دراسةً.

فديوانُ نازك الملائكة مصدر لشعرها وكتابها حول قضايا الشعر المعاصر مرجع، وهكذا.

الأدب : لكلمة «أدب» معنيان : معنى مادي من أدب مأدبة، بمعنى أولم وليمة. ومعنى روحي تطور مع الزمن. وقد مرت هذه الكلمة بمراحل عديدة تطورت في مفهومها . فقد كانت معروفة في العصر الجاهلي بمعنى الخلق النبيل الكريم، وما يتداوله العامة والخاصة في حياتهم. وجاء في المأثور: كادَ الأدب أن يكون ثلثي الدين». وشاع استعمالها، وتعددت مشتقاتها، وتمايزت معانيها في العصر الأموي مع توسع الثقافة؛ فقد أصبحَ لفظ «مؤدب» يطلق على جماعة المربين والمعلمين

لأبناء الطبقة الخاصة . وتحدد معنى «أدب» التهذيبي منذ أواسط القرن الأول للهجرة. فنجدها مستعملة في معنيين متمايزين :

١ - المعنى الخلقي التهذيبي : وهو تمرين النفس على الفضائل .

٢ - المعنى التعليمي : وهو قائمٌ على رواية الشعر والنثر، وما يتصل بهما من أنساب وأخبار، وأمثال ومعارف باستثناء العلوم الدينية والدنيوية والفلسفية . ورغم تنوع مفهومها ظلت ذات معان لصيقة بالشمائل. حتى إن العرب حين ترجموا كتب «الآيين» الفارسية ترجموها بمعنى السلوك والتقاليد . ولهذا فإن مفهومها منذ نهاية العصر الأموي تحدَّد أكثر ؛ فالأديب هو المؤدب ، وهو مختلف عن الشاعر، وعن الناثر. فمن غلب عليه درسُ الأدب أو تدريسه سُمي أديباً ، ومَن نظم الشعر سُمي شاعراً، ومن كتب النثر دعي كاتباً. وتوسع مفهوم اللفظة في العصر العباسي، فغدت تدل على أربعة معان منذ مطلع القرن الرابع الهجري :

١ - المعنى الخاص، وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من أخبار وأنساب وأحكام نقدية .

٢ - المعنى العام، وهو الذي يتناول المعارف الإنسانية والآثار العلمية وأنواع الفنون الثقافية. فصار لكلِّ وضع أدباً، ولكلِّ علم أدباً، ولكلِّ مجلس أدباً. لذا قالوا : أدب مجالسة الملوك ، وأدب النديم والمنادمة، وأدب الوزير وأدب الحديث. وأصبح للعود والشطرنج واللعب بالصوالج و . . أدب، وهذا كله من أثر الفرس وإقبال العرب على الحضارة .

ـ ما يستعين به المرءُ على فهم الأدب ونقده ،وإنشائه كاللغة والنحو والأخبار والنقد. فألفوا كتباً في «أدب العالم والمتعلم» و «أدب المدرس والدارس»، و«أدب الكاتب» و «أدب القاضي».

٤ ـ أدب النفس ويتناول كل أسلوب منمق في علم أو عمل أو حرفة. وحين اتسع أفق الأدب في القرن الخامس أخذ يَتَفَرَّعُ عنه علوم كانت جزءاً منه في الأصل؛ ففصلوا النقد والبلاغة لأنهما استوفيا مظاهرهما، كما فصلوا اللغة والنحو في باب خاص، وحولوا الأخبار والأنساب إلى علم التاريخ. وبالنهاية نراهم قصروا «الأدب» على الكلام الجيد شعراً ونثراً .. وهذا هو الأدب الخاص. في حين أن الأدب العام ظل متسع الأفق يشمل جميع الآثار العقلية فلاحظنا أن مدلول «الأدب» ضاق حتى اقتصر على علم اللغة العربية، وأن العلوم الأدبية التي كانت جزءاً

منه استقلت عنه وشيئاً فشيئاً ترسخت قواعد الأدب» لتعود إلى احتضان هذه الفنون الكتابية والإلقائية .

واذا نظرنا اليوم إلى تعريف كلمة «أدب» رأيناهم يعرفونه بأنه : «ما عبر عن معنى من معاني الحياة بأسلوب جميل ، أو هو الكلام الذي ينقل إلى السامع أو القارىء التجارب والانفعالات النفسية، التي يشعر بها المُتكلم أو المنتج». فكأنهم يريدون أن يقولوا إنه علم يضم أصول فن الكتابة النثرية والشعرية المتأثرة بالعاطفة، والمؤثرة في العاطفة . وغدا مرآةً لنفس الأديب الذي يعكس بها حقائق ومتطلبات يحتاج إليها الشعب نابعةً من أعماق المجتمع، صادرةً عن أحد ينابيع الفكر، التي يرعف بها قلم معبر متميز يهدف الى صقل البشرية بتوضيح صورة خيالية فيها واقع، وفيها عناصر فنية تميزه من الإنسان العادي وإن كانت في الأصل هدفه ومنبعه. ولهذا قال إمرسن : « الأدب سجل لخير الأفكار» .

فالأدب فكرة وأسلوب مضمون وشكل .. هو فكرة من واقع المجتمع أو من أحلامه، وهو أسلوب فيه براعة ، وجاذبية، ورشاقة، وموسيقى . يتكون من ذلك كله أدب أمةٍ وأدب شعب. وإذا قلنا : أدب العرب، وأدب الهنود، وأدب الإنكليز تجمع لدينا مفهوم دقيق واحد، هو مجمل الآثار الكتابية التي يقدمها أديب هذه الأمة، معبراً بها عن طموحها، وأحلامها، وآمالها.

الدرس الثالث:

التراث : هو ما تخلفه الأمم عبر التاريخ، ويكون مرآة لحضارتها في عاداتها وتقاليدها، ومنتجاتها اليدوية والفكرية وفنونها وخبراتها وما يُوَرِّثُهُ السَّلَفُ للخَلَفِ، ويكون موضع اعتزاز له. فالفراعنة تركوا تراثاً ضخماً في أهراماتهم وما سجلوه على ورق البردي، والهنود يفخرون بتراث عريق يدلُّ على حضارات عريضة كانت لهم سواء في الفكر والفلسفة، والطب والأدوية، والعادات العريقة وتراث العرب مفخرتهم التي لا وهي ما نعتز به عقديا ، واجتماعياً، وفكرياً، وإنسانياً . وتحفل المتاحف بأفانين تراث الأقدمين فنياً وعلمياً. وهو مرتبط بالكلاسيكية، ومتعارض مع الحداثة .

الأمالي: جمع أملية على غير قياس. وهي الكتب التي يمليها الشيخ على طلابه مما يلزمهم من علوم ومعارف. وهي أشبه بلفظة «المحاضرة» في العصر الحاضر. ولفظة «محاضرة» كذلك كانت قديمة وتعادل لفظة «مجلس»، مثل «محاضرات الأدباء» للراغب، و «مجالس ثعلب لثعلب. وكثرة المدارس التعليمية تتطلب كثرةً في كتب الأمالي (انظر: أمالي القالي.

ومن كتب الأمالي : أمالي السيد المرتضى، وأمالي ابن الشجري...

الأمالي للقالي: كتاب مشهور ألفه أبو علي القالي البغدادي (ت ٣٥٦ هـ). رَحَلَ إلى الأندلس وأملى كتابه هذا في مسجد قرطبة. فكان من أمتع الكتب الأدبية وأغناها مادةً، فقدموها - لهذا ـ على الكتب الأربعة المشهورة وهي : الكامل. البيان والتبيين. أدب أنه كتاب أدب فإن اللغة كانت تطغى على سماته، لأنه نوع من كتب التدريس. ولم يتبع فيه منهجاً علمياً في عرض معلوماته، فجاء سلسلة وروايات وأشعارٍ ونصوص نثرية، ويطغى الاستطراد على عرض أفكاره ومعلوماته . ولعل الذي دفعه إلى التجويد والإطالة شوقُ الأندلسيين إلى سماع أخبار المشارقة . طبع الكتاب بليدن أول مرة عام ١٩١٣ ، ثم أُعيد طبعه بذيله ببولاق سنة ١٣٢٤ هـ. ثم أعيد طبعه غير مرة بعد ذلك لأهَمِّيَّته .

الأمالي للشجري: كتابٌ في الأدب أقل أهميةً وشهرةً من أمالي القالي، ألفَهُ أبو السعادات هبة الله بن علي (ت ٥٧٢ هـ). وهو في خمسة فنون في الأدب بثماني مجلدات. أملاها في أربعة

وثمانين مجلساً، وختمه بمجلس قصره على أبيات من شعر المتنبي، تكلم عليها، وذكر ما قاله الشراح فيها. وهو كتاب مفيد مُمتع في الأدب ـ طبع في جزءين .

البيان والتبيين: هذا هو الاسم الشائع لكتاب الجاحظ . غير أننا نرى أن يكون اسمه «البيان والتبين»، بحيثُ يكون بيان من الجاحظ، وتبين من القارىء .

يأتي الكتاب في المرتبة الثانية في الأهمية بعد «الحيوان»، وألَّفَهُ بعد أن أنجز تأليف الحيوان. ومع ذلك فقد أقبل النقاد والقراء على هذا الكتاب أكثر لأن مظاهر الأدب والعاطفة تتجليان فيه . ويتضمن الكتاب مباحث مهمةً جداً في الفصاحة والبلاغة وأصول البيان. ولا ينسى الوقوف عند الألفاظ ومخارج حروفها، ويتطرق إلى عي بعضهم وعجزهم عن النطق السليم. وبالتالي يتوسَّعُ في فن الخطابة والخطباء، وفن الشعر والشعراء .

ولعل أساس كتابه هذا - كغيره غالباً - هو مقارعةُ دعاة الشعوبية، والإشادة بفصاحة العرب دون الأعاجم ، فكان خير مدافع عن العربية والعرب ضد نهضة الشعوبية المعادية.

الدرس الرابع:

جمهرة أشعار العرب : كتاب من كتب المجموعات الشعرية المهمة عند العرب. ألفه أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القُرشي، وجمع فيه السبعيات المشهورة التي تعتبر عيون الشعر في الجاهلية والإسلام وهي المعلقات المجمهرات، المنتقيات، المذهبات المراثي المشوبات، الملحمات بعد أن قدَّم لها بمقدمةٍ مُسْهَبَةٍ ذكر فيها أول من قال الشعر، والشعر في رأي النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمهيداً لمن ذكر من الشعراء. طبع بمجلد واحد .

الجمهرة: أحد المعاجم اللغوية الكبيرة، صَنَّفَهُ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ). أورد في أوله ذكر الحروف المعجمة، واختار بناءه على تأليف حروف المعجم لكونها أنفذ، فبدأ بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحق الرباعي، وكذا الخماسي والسداسي وملحقاتها. وأفرد للنوادر باباً بخلاف الخليل الذي وضعها مع المواد في أبوابها .

اتبع ابن دريد الخليل في نظام قَلْبِ الكلمة، وابتدع نظاماً في ذكر المواد بأن يبدأ كل باب بالكلمة المبدوءة بالحرف الذي وقف عليه الباب آخذاً بالحرف الذي يليه تاركاً ما سبقه .

وسماه بذلك لأنه اختار «الجمهور» من كلام العرب ويعتري النسخة خلافٌ لأنه أملاه في فارس، ثم أملاه بالبصرة ثم ببغداد من حفظه . وطريقة استخراج الكلمة منه اليوم تتم بالاستعانة بالفهارس العلمية في الجزء الرابع .

الشعر والشعراء: كتاب في تراجم الشعراء ألفَه ابن قتيبة في القرن ٣ هـ، ويُعدُّ في طبقة الجاحظ . أما الكتابُ فمن أقدم الكتب الأدبية التي ضمت ترجمةً ومختارات للشعراء من غير استقصاء المُجْمَلِ حياتهم أو لكلِّ أشعارهم. واقتصر كذلك على مشاهير الشعراء، من غير أن يحدّد العصر؛ فهو أكثر من الجاهليين والإسلاميين، وقلل من المحدثين والمولدين. وقد بلغ عدد من ترجم لهم مئتي شاعر وستة شعراء، عَرَضَهُم من غير تتبع زمني، وإن كان قد بدأ بأقدم

الجاهليين، وقدم لكتابه بمقدمةٍ نقدية مهمة .

الدرس الخامس:

طبقات فحول الشعراء: ويعرف بـ «طبقات الشعراء» وبـ «طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين». ألَّفه محمدُ بنُ سلام الجُمحي (ت ٢٣١هـ). وهو من أقدم كتب تراجم الشعراء. ويقصد بـ «الطبقات» تقسيم الشعراء أو الفنون بحسب عصورهم. وجعل شعراءه في عَشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء، فئة للشعراء الجاهليين، وأخرى للإسلاميين. ومجموع الشعراء الذين ترجم لهم ثمانون شاعراً . . واكتفى بترجمة موجزة ومختارات لكل شاعر. وأضاف الجمحي على طبقاته مجموعةً من الشعراء اختصوا بالرثاء فكان كتابه طبقات للشعراء وطبقةً لفن واحد. وهو كتاب شديد الأهمية، ومصدر لخيرة الشعراء القدماء. ويأخذ عليه النقاد بعض المآخذ في ماهية توزيع بعض الشعراء على طبقاتهم. وأهم ما في الكتاب مقدمة نقدية، لعلها أوَّل ما كتب في قواعد النقد.

" الكامل" للمبرد : كتابٌ أَلَّفَه المبرَّدُ محمد بن يزيد أبو العباس (ت ٢٨٦ هـ). وهو في اللغة والأدب والنحو والصرف والأمثال والمواعظ لكن موضوعات اللغة تغلب على الأدب. فيه . وكان كالجاحظ يبسُط ثقافة العصر، ويتعمَّد الاستطراد لمنفعة القارىء، بعد قوله : والشيءُ بالشيء يُذكر». وينفرد الكتاب بأخبار مفصلة عن الخوارج، وبنماذج من أشعارهم. بالإضافة إلى كونه أحد المصادر الأساسية في اللغة والأدب والتاريخ .

عني العلماء بدراسة «الكامل» فشرحوه وعلقوا عليه . وخير من شرحه سيد المرصفي بعنوان: «رغبة الأمل كتاب الكامل». وطبع الكتاب مراراً على حدة، أو مع شرح من المرصفي عليه .